

## القصة العربية

نقصد بالقصة العربية فن القصص العربي وعلى الأخص ذلك الفن في مصر ولسنا ممن يعتقد أن هناك استعداداً شعبياً خاصاً يميز بعض الأجناس فتكون أقدر من سواها على القصص . وذلك لأن عماد القصة هما قوتان من قوى العقل الأولى الخيال المنشئ والثانية التفكير المنطقي . ولعلنا إذا رجعنا إلى الملاحظة أمكن أن نتبين أن الأديب العربي لا يعوزه الخيال المنشئ ولا التفكير المنطقي ولو أن هاتين القوتين منصرفتان في العادة إلى أبواب أخرى من الأدب غير القصص

يؤخذ على الأدب المصري خاصة وعلى الأدب العربي عامة أن رجاله انصرفوا في كل العصور إلى فنون كثيرة منه ولكنهم لم يوفقوا إلى تكوين قصة وطنية عربية حتى لقد قال بعض كتاب تاريخ الأدب العربي أن هناك نقصاً في نفس الخيال العربي أو خيال الجنس السامي عموماً يجعله غير قادر على إيجاد ذلك النوع من الأدب الذي يمتاز به أدب الجنس الآري منذ أيام اسكيليس وسنوكليس إلى أيام دكنز الإنجليزي وجوت اللاماني وأتاتول فرانس الفرنسي

وقد يكون لمن يفكر مثل هذا التفكير بعض العذر في قوله لأنه يحاول أن يفسر ظاهرة من ظواهر الأدب العربي بحار الإنسان في تفسيرها وهذه الظاهرة هي خلو ذلك الأدب من القصص بالمعنى الصحيح . نعم قد يمكن أن يرد جماعة من متحمسي ادباء العربية قائلين أن الأدب العربي لا يخلو

من القصاص وهاهي الف ليلة وليلة وقصص عنتره وسيف ابن ذى يزن  
وأضرابها يمكن أن تعد قصصاً قومية في الأدب العربي ولكن مثل ذلك  
الرد يكون من الردود الجدلية التي تحاول انكار الحقائق . فان الأدب العربي  
لم يعرف القصة كما عرفها الأدب اليوناني القديم ولا كما عرفها الأدب الاوروبي  
في هذه العصور

وإذن اليس هذا تناقضاً ؟ اننا نقول أن الأدب العربي ينقص نقصاً  
ظاهراً في هذا الباب وهو القصاص وفي الوقت نفسه نفكر قول من يقول  
أن هناك نقصاً في خيال العرب والجنس السامى يجعل الاتجاه الى القصة غير  
ممكناً . ولكن هذا التناقض ظاهري فقط لأننا انما نذكر التعليل الذى  
ذهب اليه جماعة من مؤرخى الأدب ولسنا نذكر الظاهرة الأدبية ذاتها  
لقد انصرف الفكر العربى الى مناحى شتى منذ اتسع له المجال ومنذ  
بدأ العرب يجارون فى المدنية الامم القديمة من فرس وروم ومصريين وهى  
تلك الامم التى حل العرب فى أرضها وبدءوا ينشئون مدينتهم على انقاض  
مدنيتها وتشعبت فروع التفكير أمام ذوى الثقافة من العرب فاشتغل منهم  
جماعة بالعلم وجماعة بالأدب — فاما العلم فانصرف له صفوتهم فصنفوا كتب  
الفقه و ضربوا بسهم فى مختلف العلوم الوضعية الدنيوية — وأما الذين  
انصرفوا الى الأدب فكانوا فى العصر الأول اتباعاً لرجال السياسة بين  
شاعر متصل ببيلاط ملك أو كاتب مؤتمر يخدم أميراً . وكان جزاؤهم من  
الامراء والملوك ولم تسمح لهم حال المجتمع بأن يحلوا الشعب محل العناية  
فيعملوا على تسليته أو تعليمه لاتجاههم فى الغالب الى خدمة السلطان والسير

في مواطن أقدامه والتغنى بمدائح أو انفاذ ارادته . ولكن الأدباء في  
العصر الأخير انصرفوا الى وجهة اخرى — فعند زوال القوة السياسية  
الهائلة التي كانت قد سيطرت في العصر الأول على فكر الأدباء وخيالهم  
أصبح الأدب حراً طليقاً وكان يمكن أن ينصرف خيال الأدباء وفكرهم  
الى الأدب الصحيح من شعر وقصص الى فلسفة ودرس لما تشعر به النفوس  
الحساسة ولكن ذلك لم يكن ممكناً لأسباب أكبرها اثنان الأول أن زوال  
تلك القوة السياسية الهائلة جاء متأخراً مما شمرت الأفكار بالحرية حتى  
كانت الأمة قد بلغت دور الترف والفساد وساعد على سرعة شيخوختها  
ذلك النظام الاستبدادي الذي امتازت به حكومات الاسلام المتأخرة .  
والسبب الثاني أن الأدب كان قد سار مدة طويلة في سبيل معين فكان من  
الطبيعي أن يستمر مندفعاً في سبيله ولو أن الظروف قد تغيرت ولهذا لم  
يحدث تطور خطير في الأدب إلا أن الشعر أصبح أكثر تعبيراً عن  
الوجدان وأصبح معناه أعلى وأشرف مما كان عليه في أول الأمر فنسمع  
رنة شعر أبي العلاء ثم شجون الخيام في رباعياته ولم يقاد أدباء العرب قصص  
اليونان عند ذلك لأن العادة غلبتهم وكان أهل العلم من العرب في نقلهم عن  
اليونان لا يقبلون إلا بالعلم والفلسفة ولهذا لم يلتفتوا الى الاياديه ولا  
اوديب الملك فلم يجد الادباء المتأخرون سابقة أسس يبنون عليها وصار  
الأدب العربي خلواً من القصة الحقيقية حتى العصور الحديثة  
وهنا لنا سؤال نسأله . مادامنا ننكر أن هناك نقصاً في الخيال العربي  
والفكر العربي أو بقول أدق مادامنا ننكر أن هناك نقصاً في الخيال العربي

المصرى والفكر العربى المصرى فهل يمكن أن يوجد بيننا قصص عربى مصرى؟ جوابنا على ذلك أن ذلك لا شك ممكن وقد بدأت القصة المصرية تظهر فى أشكال شتى ولو أنها للآن لم تتخذ شكلاً جديراً بالاحترام

لقد نهض الأدب المصرى منذ عهد قريب نهضة نرى أنها طبيعية فى ظروفنا الحاضرة فالامة ناشئة ناهضة من عصر نعتبره بحق عصرًا مظاهراً وقد بدأت أول نهضتها الحقيقية فى عصر محمد على ثم ما زالت بعد ذلك تتحرك الى أعلى متشاقلة أحياناً ومتباطئة أحياناً الى أن بلغت درجة من القوة فى عصر اسماعيل ثم ها هى اليوم داخلة على عصرها الذهبى ولا أخالها إلا والجة أبوابه منذ الآن. واقصد بعصرها الذهبى عصر النبوغ الفكرى الذى يخلق فيه الأفاذ. واتجهت الانظار منذ ذلك النهوض الى وجوه شتى وكان من بينها تلمس القصة سواء أ كانت روائية أم تمثيلية

غير أن النفوس المتطلعة الى سد هذه الثغرة فى أدبنا لم تجد من ماضئها ولا عادة أدبها العربى ما يصرفها الى الابتكار والتأليف - فانصرفت الى الترجمة والنقل

ان القصص مستودع مختلف الآراء فلسفيها وروحانيها وفيها يجد المؤلف مجالاً متسعاً لظهار ما فى نفسه من معانى مجسمة حية. فهى الشعر وهى الفلسفة وهى تحليل العاطفة وهى دراسة المجتمع - وهى تصوير فى التاريخ وعصوره والحياة فيه. واذا كان يراد بالقصة أن تكون ممثلة لحال البلاد بمعنى أنها تكون وطنية كان لا بد أن تنشأ فى البلاد وتمشى مع حالها النفسية والفكرية ضد البداوة والطفولة الاجتماعية الى النموذج والكمال

الاجتماعى - وهذه كانت الحال فى الأدب الاوروبى مثل الفرنسى والانجليزى فهناك نشأت القصة بدوية بسيطة عندما كان الشعب بدوياً ساذج الفكر والمأظفة . ثم ما زالت ترقى برقيه وتمو بشموه وتتطور بتطوره حتى أصبحت فى الوقت الحاضر تمثله فى مختلف العصور والأدوار فهى مرآته التاريخية والحالية

وكتاب كل عصر يجدون أمامهم أمثلة مما خلفته العصور الماضية فيندفعون فى السبيل القومى العادى بانين على الأساس الماضى - وبهذا يكون القصص فى مجمره وحدة تامة تطورت تطوراً تاماً مع الأمة

أما فى الأدب العربى فلم يكن لنا ميراث نرته ونبنى على أساسه ولهذا قامت النهضة الحديثة وتطلع الناس والأدباء الى القصة العربية فلم يستطيعوا أن يجدوا فيها ما يعنى وجاؤل بعض الكتاب أن يبدأ بالقصة العربية فكانت ثمرة مجهوده قصة بدوية بسيطة فلم يقدرها القارى لأنها كانت دون مستواه الفكرى فان الحالة الاجتماعية الحالية فوق حالة البداوة اذ لاشك فى أن الفكر المضرى وان لم يصل بعد الى دور النضوح قد ترك دور الطفولة ولذلك كانت ميوله لا تتفق مع القصة البدوية بل تتطلب قصة تمثل العصر الحاضر وفكرته ونفسيته فانصرف الأدب الى مجال آخر وأخذ ينقل مما كتبه الفرنج أو الاوربيون عامة - وبطبيعة الحال كان الأدباء ينقلون أمهات المؤلفات وآيات الفن القصصى

ولكن ذلك كان أيضاً خطأ غير مناسب كما كان التأليف العربى

المبتكر غير مناسب لأن الأدب الأوربي ما زال فوق رؤوس عامة القراء وهذا دعا الى كساد سوق القصص بين العامة — وعامة الشعب القارى هي المقصودة بالذات اذا اراد كاتب قصصى أن يؤلف قصة

فاصبحت الروايات المنقولة عن الادب الأوربي لا يتقبلها الا لخاصه والعلية الفكرية ورفضها الشعب القارى رفضاً باتاً اذ أنه لم يدركها لأنها غير طبيعية له ولا تعبر عن عواطفه وأفكاره

وأراد جماعة من ناشري الكتب أن يصلوا الى قلب الشعب فلما رأوا أنه لا يقدر آيات الأدب الاوروي عمدوا الى السفساف والتفافات من المؤلفات — فأقبل القراء عليها اذ كانت أقرب الى عقولهم — فليس فيها فلسفة عالية فوق رؤوسهم وفيها حوادث تسلى خيالهم وان لم تنفذ عقولهم أو تعكس نفوسهم ومشاعرهم وهذا هو الموقف الخالى فالقصص الاوربي الراقى موجود بيننا ولكنه غير مقدور لا يقبل عليه إلا أقلية من العلية الفكرية وأهل التربية العالية — كما أنه يوجد بيننا القصص الاوروي المنحط وهذا شائع بين الجمهور لا يفيد ولا يغذى عقله ولا ينير عاطفته بل كل ما يعمله أنه يسلى في وقت الفراغ بأن يفسح في المجال للعقل أن يتخيل خيالاً مطلقاً ويشير صورة من الصور

إذن لقد أخفق الأديب المصرى في محاولة القصة الى الآن على الرغم من الشعور بضرورتها . والآن أممکن أن توجد بيننا قصة وطنية ؟ هذا سؤال تتوقف الاجابة عليه على امور كثيرة ولكننا مع ذلك لا نتردد أن نجيب قائلين نعم يمكن ذلك بلا شك .

يجب أن يوجد أولاً الكاتب الروائي . وأعتقد أن هذا موجود وان لم يكن كاتباً كاملاً . ولكن ما معنى الكمال ؟ ان يجعل مقياس الكمال عندنا مثل مقياس الكمال في أوروبا ؟

إذا كنا نقصد الى إعطاء قصة للشعب فلا بد من أن يكون مقياس الكمال عندنا هو أن تكون القصة ملائمة لعقل الشعب الحالي ونفسه وأن يمكن أن تثير القصة في ذهنه صورة صالحة له — وأن تغذي عقله الغذاء الملائم له الذي يقدر أن يهضمه ويتفح به . فإذا قلنا كمال الكاتب عندنا بمقياس أناتول فرانس أو اضرايه من رجال الأدب الغربي كنا مبالغين مبالغة مضرّة وكنا سالكين مسلكاً غير طبيعي محكوم عليه حتماً بالفشل ولهذا كان لا بد أن نتطلب قصة جديدة — ولكنها قصة توافق المجتمع الحالي وتلائم قواه . وفي اعتقادنا أنه إذا وجدت هذه القصة فلا بد أنها تنمو في المستقبل مع المجتمع حتى تكون بعد جيل ملائمة له خاصة به منطبعة بطابعه الفكري يعني أنها تكون قصة وطنية م

محمد فريد أبو حديد